

نظرية الفعل والنسق الاجتماعي عند تالكوت بارسونز

- السياق الفكري والتاريخي:

يعتبر تالكوت بارسونز (1902-1979) Talcott Parsons من أبرز منظري علم الاجتماع في القرن العشرين ومن أكثر الباحثين الذي طوروا الصياغات النظرية والمفاهيمية للحقل السوسيولوجي، خصوصاً البنائية الوظيفية، من خلال نقله للكثير من المفاهيم من مختلف التخصصات إلى علم الاجتماع، وقد نشأت نظريته في سياق فكري معقد يجمع بين تأثيرات متعددة من المفكرين الأوروبيين الكبار.

ولد بارسونز في كولورادو بالولايات المتحدة الأمريكية، درس بارسونز لمدة عام في مدرسة لندن للاقتصاد، ثم التحق بموجب منحة تبادل طلابي إلى هايدلبرغ، حيث اطلع على أعمال ماكس فيبر لأول مرة، وقدم أطروحة الدكتوراه حول "مفهوم الرأسمالية في الأدب الألماني الحديث"، وقد عالج، من بين آخرين، كارل ماركس وماكس فيبر. لقد لعب بارسونز دوراً هاماً في إدخال فكر ماكس فيبر إلى الولايات المتحدة عندما ترجم كتابه الموسوم "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" عام 1930. وفيما بعد حلل المنظور النظري لماكس فيبر في المجلد الثاني من مؤلفه، الموسوم "بناء العمل الاجتماعي" عام (1937).

مارس بارسونز مهنة التدريس لعام واحد في إمهرست، ثم ذهب إلى جامعة هارفرد كمدرس في عام 1927، وخلال الفترة 1927-1930 كان في قسم الاقتصاد، حيث تأسس قسم علم الاجتماع في هارفرد عام 1930. بقي بارسونز يدرس في هارفرد حتى تقاعده كأستاذ فخري في عام 1973. وفي عام 1942 تم انتخابه رئيساً للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع.⁽¹⁾

تأثر بارسونز فكرياً بشكل كبير ببعض المفكرين الذين شكلوا منطلقاته النظرية منهم دوركايم، سيغموند فرويد، و ماكس فيبر...⁽²⁾ الذي أخذ منه مفهوم الفعل الاجتماعي ذي المعنى والتمييز بين أنواع الفعل، لكنه دمج هذه المفاهيم في نموذج يتمتع بهيكلية معيارية أقوى. في حين ركز فيبر على البعد الذاتي للفعل، كما شدد

(1) -رث والاس ألسون وولف. مرجع سبق ذكره، ص 63.

(2) -سمير نعيم، مرجع سبق ذكره، ص 204.

بارسونز على أن الفعل لا يقتصر على كونه ذو معنى موضوعياً، بل يخضع أيضاً لقواعد ثقافية تحكم سيره وهذا ما سنوضحه من خلال هذه المحاضرة. أما إميل دوركايم فقد قدم لبارسونز مفاهيم أساسية مثل النظام والتماسك والاندماج، بالإضافة إلى فكرة أن النظام الاجتماعي يستند إلى قيم مشتركة تضمن التماسك الاجتماعي.

أما فيلفريدو باريتو، أخذ منه بارسونز التمييز بين الأفعال المنطقية وغير المنطقية، حيث جادل باريتو بأن الأفعال المنطقية هي وسيلة لغاية تتماشى مع أنظمة المعتقدات للأفراد وتستند إلى تنبؤات صحيحة تجريبياً، بينما الأفعال غير المنطقية تتحدى الواقع وتتأثر بخيال يوتوبي أو اندفاع أو عوامل ذاتية أخرى لا تخضع للتفكير المنطقي. في حين نجد ألفريد مارشال في الاقتصاد، استفاد بارسونز من فهمه للعمليات الاقتصادية كجزء من الأنظمة الاجتماعية التي تشكلها عوامل ثقافية ومعيارية، وهو رابط يكتسب أهمية بالغة في سياق الأسواق العالمية والتفاوت الاقتصادي المعاصر.

يعد كتاب بارسونز الأول والأهم "بناء الفعل الاجتماعي" The Structure of Social Action 1937 شهادة على هذا الجهد التركيبي، حيث حاول فيه بارسونز تقديم قراءة موحدة لهؤلاء المفكرين الأربعة، مع التركيز على ما يراه نقطة التقاء جوهرية بينهم: مسألة النظام الاجتماعي وكيفية تفسيره. هذا الجهد التركيبي لم يكن مجرد تلخيص للتقاليد المختلفة، بل كان محاولة جادة لبناء نظرية موحدة تتجاوز حدود كل تقليد على حدة. يُشير بارسونز في مقدمة الكتاب إلى أن الهدف ليس تقديم تاريخ فكري، بل الكشف عن بنية مشتركة في أعمال هؤلاء المفكرين تسمح ببناء نظرية موحدة.⁽³⁾

في معنى الفعل الاجتماعي:

يعد الفعل الاجتماعي عند "بارسونز" الركيزة الأساسية للحياة الاجتماعية ولأنماط التفاعل بين الأفراد، فما من صلة تقوم بين الأفراد والجماعات إلا وهي مبنية على الفعل الاجتماعي. وما أوجه التفاعل الاجتماعي إلا أشكال للفعل التي تتباين في اتجاهاتها وأنواعها ومساراتها، ولهذا يعد الفعل عنده الوحدة التي يستطيع

الباحث من خلالها رصد الظواهر الاجتماعية وتفسير المشكلات التي يعاني منها الأفراد، وتعاني منها المؤسسات على اختلاف مستويات تطورها.

وكان " بارسونز" تواقاً إلى تمييز نظرية الفعل عن النزعة السلوكية. فهو استخدم مصطلح " الفعل" لأن له دلالة تختلف عن دلالة مصطلح " السلوك" فالسلوك يعني الاستجابة الآلية للمثير، في حين يدل الفعل على عملية ذهنية إبداعية مدفوعة بالنشاط.

وأوضح " بارسونز" أن نظرية الفعل لا يمكنها أن تفسر الأبنية والنظم الاجتماعية تفسيراً ملائماً، مع أنها تستطيع البحث في أهم صور الحياة الاجتماعية.⁽⁴⁾

الفعل الاجتماعي هو سلوك إرادي لدى الإنسان لتحقيق هدف محدد، وغاية بعينها. وهو يتكون من بنية تضم الفاعل بما يحمله من خصائص وسمات تميزه من غيره من الأشخاص. وموقف يحيط بالفاعل ويتبادل معه التأثير. وموجهات قيمية وأخلاقية تجعل الفاعل يميل إلى ممارسة هذا الفعل أو ذاك، والإقدام على ممارسة هذا السلوك أو غيره.

الفعل كعملية تفاعلية بين فاعلين أو أكثر:

يؤكد باستمرار بارسونز على أن الفعل الاجتماعي الحقيقي يكون دائماً تفاعلياً، أي أنه يتضمن علاقة بين فاعلين أو أكثر. يشير بارسونز إلى أن الفعل يصبح وحدة في النسق الاجتماعي بقدر ما يكون جزءاً من عملية تفاعل بين مؤلفه وفاعلين آخرين. هذا التأكيد على البعد التفاعلي للفعل يمثل نقطة التقاء واضحة مع فكر جورج هربرت ميد وتشارلز كولي في التفاعلية الرمزية، رغم الاختلافات المنهجية بين المدرستين.

مستويات التحليل التفاعلي عند بارسونز

يميز بارسونز عملية التفاعل الاجتماعي إلى مستويين أساسيين لفهم كيفية تشكل المجتمع:⁽⁵⁾

— (4)

— (5)

- المستوى الابتدائي: هو التفاعل الأولي والأساسي الذي يحدث وجهاً لوجه بين فردين في هذا المستوى، يبدأ الأفراد بالتعرف على توقعات بعضهم البعض، ويتعلمون كيفية تنسيق أفعالهم وردود أفعالهم بناءً على ردود الفعل المباشرة.

- المستوى المؤسسي: عندما تتكرر التفاعلات المباشرة وتصبح مألوفة، فإنها تتحول من مجرد أفعال فردية إلى أنماط مستقرة. هذه الأنماط تشكل ما يعرف بـ الأدوار والمراكز، وهي اللبنات الأساسية التي تُبنى منها "البنية الاجتماعية".

يشكل هذا الانتقال من التفاعل الفردي إلى الأنماط المؤسسية المفتاح لفهم كيفية نشوء النظام الاجتماعي من الأفعال الفردية، وهو ما يعد أحد أهم إسهامات بارسونز النظرية. فالفعل التفاعلي، عندما يتكرر ويتبلور، يكون ما يسميه بارسونز النسق الاجتماعي.

مثال توضيحي:

التحول من نظرية الفعل إلى نظرية الأنساق

يمثل التحول من نظرية الفعل إلى نظرية الأنظمة في فكر بارسونز تطوراً منطقياً في مساره الفكري. فبعد أن أسس في بنية الفعل الاجتماعي المبادئ الأساسية للفعل المعياري، توسع في عمله اللاحق النسق الاجتماعي ليطبق هذه المبادئ على مستوى المجتمع ككل. هذا التحول لم يكن تراجعاً عن اهتمامه بالفعل الفردي، بل كان محاولة لربط مستوى التحليل الميكروي بالمستوى الماكروي، من خلال إظهار كيف تتراكم الأفعال الفردية لتكون أنظمة اجتماعية متماسكة.

تحديد الضرورات الوظيفية للنظام الاجتماعي:

يُعد نموذج AGIL ، الذي طوره بارسونز في النسق الاجتماعي ، التجسيد الأكمل لهذا التحول. فقد حول المتطلبات الوظيفية للفعل الفردي (الإلزامات الوظيفية للنظام الاجتماعي Les impératives fonctionnelles) إلى متطلبات وظيفية للأنظمة الاجتماعية، مظهراً كيف يجب على أي نظام اجتماعي-من المجموعات الصغيرة إلى المجتمع العالمي-أن يؤدي أربع وظائف أساسية للبقاء وهي كالآتي:

- وظيفة التكيف مع المحيط: **Fonction d'adaptation** يقصد به أن كل نسق فرعي داخل نسق أكبر (بناء جزئي داخل بناء اجتماعي أكبر) عليه أن يُخضع ظروف البيئة الاجتماعية لمشيئته، ويسيطر عليها، حتى يمكنه أن يستمر فيها ويحقق أهدافه، كذلك يجب أن تتكامل وظيفة النسق الاجتماعي الفرعي (البناءات الاجتماعية الأقل) مع وظيفة النسق الاجتماعي الأكبر، كما ينبغي ألا تتعارض وظيفة النسق فرعي مع أهداف أي أنساق فرعية أخرى.

-الوصول إلى الهدف: **Goal Attainment** أي أن أي فاعلين بداخل أي النسق اجتماعي يسعون إلى تحقيق أهداف، وإلا ما كان ذاك نسق أصلاً، ومع أن الفاعلين يشغلون مراكز اجتماعية مختلفة، ويؤدون أدواراً اجتماعية مختلفة، إلا أن هناك أهدافاً جماعية يجب السعي إليها، والعمل على تحقيقها، وعن طريق تنظيم المراكز وتحديد الأدوار داخل كل جماعة، ومن خلال توضيح الوسائل والغايات يتجه النسق الاجتماعي نحو تحقيق أهدافه التي رسمها لنفسه، أو رسمها له نسق اجتماعي أعم (وحدة بنائية أكبر) كالمجتمع.

-التكامل: **Fonction d'intégration** ويعني بالتكامل العلاقات التي تعم داخل النسق الاجتماعي بالذات، و هو يرى أن دراسة العلاقات الداخلية بين أفراد النسق ذات منظور سوسيولوجي أصيل، وذلك لأن العلاقات الإنسانية تختلف عن العلاقات بين الكائنات الحيوانية والحشرية الأخرى. أي أن ترابط المجتمعات الحيوانية والحشرات بعضها ببعض فتمليه ضرورات استجابتها للتفاعل تفرضه غرائزها

وجهازها العصبي والاستشعاري، أما المجتمعات الإنسانية فإن الأمر يختلف فالترباط والتماسك الاجتماعي لا يعم بطريقة أوتوماتيكية ولكن عن طريق المرونة والتكيف والثقافة التي يتميز بها عن باقي الكائنات الحية. فهدف التكامل هو تحقيق التماسك والتضامن واستقرار النظام، واستمرار نسق العلاقات ولما كانت عملية التكامل لا تتوقف عند حد، ولا تنتهي فإنها تصبح بحاجة إلى تجديد ميكانيزماتها باستمرار.

- دعم النمط و إدارة التوتر : **Fonction de stabilité normative** وهو يركز على الأسرة كنسق اجتماعي و دورها في التنشئة الاجتماعية، حيث تقوم بتعليم الأطفال الصيغ الفكرية و القيم المميزة للنسق الثقافي مما يحقق التكامل المعرفي للفاعل مع القيم و المعايير و الأبنية الاجتماعية للنسق. فهي تساعد أفرادها على أداء وظائفهم بقدر أكبر من الفاعلية.⁽⁶⁾

مستويات النسق عند بارسونز

يمثل مفهوم النسق System مركز أي مناقشة في النظرية البارسونية، فقد أشار بارسونز إلى أن "مفهوم النسق في حقل الفعل، كما هو الحال في الحقل الأخرى، يعتبر مركزي في تفكيري منذ فترة زمنية مبكرة".⁽⁷⁾ إن نظرية بارسونز العامة في الفعل، والتي قدم فيها الصورة الكلية لكيفية بناء المجتمعات وتواؤمها مع بعضها، تتضمن أربعة أنساق.

وبعبارة أخرى يدرس "بارسونز" الفعل الإنساني بوصفه منظومة اجتماعية متكاملة، يسهم كل عنصر من عناصرها في تكوين الفعل على نحو من الأنحاء، وهي مؤلفة من أربع منظومات وهي كالتالي:⁽⁸⁾

- النسق العضوي أو المنظومة العضوية تحدد الخصائص العضوية للفاعل، ومنها تنشأ حاجاته وإمكاناته وقدراته، ولا يستطيع المرء أن يمارس الفعل الاجتماعي إلا في الحدود التي تسمح بها عضويته، ومكوناتها.

— (6)

— (7)

— (8)

- النسق الشخصي أو المنظومة الشخصية: تحمل قدراً كبيراً من الخصائص التي تميز الفاعلين من بعضهم بعضاً بما أوتوا من تفاضل في القوة والتأثير والقدرة على تحمل المصاعب، وغير ذلك من الصفات التي تجعل الأفراد يتفاوتون أيضاً في قدراتهم على ممارسة الفعل الاجتماعي الواحد.

- النسق الاجتماعي أو المنظومة الاجتماعية: فهي تشمل أنماط التفاعل والروابط التي يقيمها الناس بين بعضهم بعضاً، ويستطيعون من خلالها ممارسة الفعل على النحو الذي يصيرون فيه قادرين على ممارسة الفعل، فهم يتوزعون المواقع الاجتماعية التي تتيح لكل منهم ممارسة الفعل على نحو مختلف تبعاً للموقع الاجتماعي الذي يشغله في بنية المنظومة الاجتماعية، فالفرد لا يستطيع أن يمارس الأفعال الاجتماعية إلا في الحدود التي تسمح بها المواقع والمهام التي يشغلها في بنية التنظيم.

- النسق الثقافي أو المنظومة الحضارية والثقافية: وهي الأعلى في مستويات منظومة الفعل، حيث تنطوي على القيم والأخلاق والمبادئ العامة التي توحد تنوعات المنظومة الاجتماعية، ومنها يستقي الأفراد المعاني والدلالات التي تنطوي عليها الأفعال، ومن خلالها يستطيع المرء أن يميز أشكال الفعل، ويحكم على صلاحيتها بالنسبة إلى ثقافته وحضارته. وتبرز وحدة المجتمع بوحدة المنظومة الثقافية والحضارية التي تؤلف مصدر تقويم الأفعال وتوجيهها، وبفضل وحدة المنظومة الثقافية أيضاً يتحقق للتنظيم الاجتماعي توازنه واستقراره، وليس من اليسير أن تتغير معالم المنظومة الثقافية بين عشية وضحاها، بل تتأكد من خلالها شخصية التنظيم الاجتماعي وهويته، ومن خلالها يظهر التباين بين المجتمعات الإنسانية والحضارات المتعددة.

التغير الاجتماعي في منظور بارسونز

غالبا ما يوجه الانتقاد لنظرية الفعل الاجتماعي لدى بارسونز على أنها ثابتة وتركز على ظواهر الاستقرار (المحافظة على الأنماط) وإعادة الإنتاج (الاندماج)، حيث يرى "رايت ميلز" من النظرية الشاملة لكونها غير قادرة على تحليل التغيرات والصراعات الاجتماعية. وهو ما رفضه بارسونز، الذي يعتقد بأن نظريته تسمح أيضاً بتفسير التغيرات. وقد ميز بارسونز في هذا الصدد بين نوعين من التغير:

-التغير القصير المدى:

يميز بارسونز بين تغير التوازن و تغير البناء، فمفهوم التوازن يعتبر لديه بمثابة فرضية عمل، يعتقد من خلالها بأن عناصر البنية هي عناصر مستقرة/ثابتة في مجال زمني محدد، هذا الاستقرار ينطبق في نقطة التوازن بين عناصر النسق وما بين هذا النسق ومحيطه، فأمام أي اختلال فإن التوجه الطبيعي للنسق يسير نحو الحفاظ والبحث عن توازن في النسق الاجتماعي، وبما فإن وظيفة التوازن المعياري هي من يحاول الحفاظ على التوازن، حيث القيم المستبطنة عن طريق التنشئة الاجتماعية تعمل كثقل معاكس Contrepoids لمتطلبات التغير، وبخصوص حالة اختلال التوازن يميز بارسونز بين صورتين:

أ-تغير التوازن: هو الذي يسمح بالوصول الى توازن جديد من دون أن يحدث أي تعديل في النسق في حد ذاته، فالتعديلات لا تحصل الا في الأجزاء أو في الأنساق الفرعية، فمثلا إذا كان الهدف من الإضراب هو إعادة ضبط الأجور حسب تطورات المستوى المعيشي، فنكون في هذه الحالة أمام تغير توازن وليس أمام تغير البنية.

ب-تغير البنية: **Changement de structure** يمس النسق برمته ويكون نتاجا لتراكم التوترات داخل النسق الاجتماعي، وإذا ما استعدنا المثال السابق، فحينما يأخذ الإضراب حجما كبيرا وشاملا كما هو الحال عليه في أحداث فرنسا 1968 أو يتمحور حول تحولات كبيرة، سواء تعلق الأمر بظروف العمل أو المستوى المعيشي، فنكون هنا أمام تغير بنية يكون مشروطا وموجها بتغير في القيم وبتعديل في الأنماط.

خلاصة: إن التغير سواء كان تغير توازن أو تغير بنية، فإنه يفهم بمثابة نمط تكييف يكون من شأنه أن يساهم في التقليل من التوتر المتزايد، حيث غاية النسق هي البحث عن توازن جديد.

التغير البعيد المدى: في هذا الخصوص تحدث بارسونز عن التغير التطوري، ومع أنه كان معارضا للتطورية في البداية إلا أنه حاول فيما بعد اعتماد هذا المنظور الخاص بالتاريخ، والمسألة هنا تتعلق بتطورية معقدة تقوم على الاعتراف بتعدد محركات التاريخ. الوسائل التاريخية والحالات المجتمعية، وفي الإطار فإن الظاهرة الأساس للتطور كما لاحظته بارسونز، ذلك الخاص بتمايز وظيفي وبنائي يتوافق مع أن المجتمعات تصبح

أكثر تقدما. وعليه فالمجتمعات الأكثر "تقدما" تكون مجتمعات "مركبة" بعكس المجتمعات التقليدية، حيث تكون الأنساق الوظيفية الأربعة أقل تمايزا، إذ أن الكل البنائي نفسه L'ensemble structural يقوم بالتزامن بأكثر من وظيفة.

في هذا الصدد تطرق غي روشيه G.Rocher- لمثال الكنيسة الكاثوليكية في المرحلة القرون الوسطى التي كانت في الوقت ذاته قوة روحية وقوة سياسية، كما كانت تشكل جماعة اقتصادية بالنظر للعقارات الكبيرة التي كانت تمتلكها وتستغلها في الإنتاج، وعليه فإنها كانت تقوم في مرة واحدة بوظائف التكامل، تتبع الأهداف والتكيف وفي الوقت ذاته بوظيفة الاستقرار المعياري، فالاختلاف أو التمايز بين الوظائف الأربعة وبين الكليات البنائية التي تقابلها لم تبرز بشكلها الواضح إلا في المجتمعات الأكثر تقدما.

ومن الأمثلة الأخرى، مسكن العائلة المزارعة كان يشكل في الوقت ذاته وحدة للإقامة ووحدة للإنتاج، لكن مع ظهور الأجور حدث الانفصال بين فضاء الإنتاج والفضاء العائلي. فالاختلاف/التمايز يحدث في الأنساق عبر انقسامية تطويرية تتشكل جماعات فرعية جديدة تقوم بإعادة صياغة المعايير والقيم بشكل تتكيف فيه مع الأدوار الجديدة التي تبرز. فالمجتمع المتقدم إذن، يتميز/يختلف عن المجتمع التقليدي من خلال ثقافة أقل انسجاما أو أكثر تنوعا بالنظر إلى تعدد البنيات الملموسة والجماعات الفرعية.⁽⁹⁾

الماركسية المحدثه:

تبلورت في سبعينيات القرن 20 كقراءة جديدة للإرث الفكري لكارل ماركس من جهة وكبديل للبنوية الوظيفية من جهة أخرى.

وقد انطلقت من فكرة مركزية مفادها أن الظاهرة الصراعية شمولية ومستمرة ودائمة معتمدة على مفاهيم أساسية: الصراع، المكانة، الصفوة، القوة، السلطة.....

كما انها اتجاه فكري يعرف عنه أنه ينطلق من الإطار التصوري والمنهجي للماركسية ومن القوانين العامة للتطور الاجتماعي، والجانب الحدائي فيه يتمثل في كونه بمثابة إعادة قراءة للماركسية، غايتها توضيح كيفية سير القوانين النوعية للتطور الاجتماعي واتجاهها في مجتمعات محددة، وذلك باستغلال المعطيات الجديدة التي يفرزها الواقع الاجتماعي المتغير في هذه المجتمعات. ولكونها تنطلق من الأساس المعرفي والإيديولوجي للماركسية، فإنها تصنف ضمن الاتجاهات التغييرية، أي أن مواقفها نقدية وراديكالية في عمومها، وان كان كل موقف راديكالي لا يعني حتما أن صاحبه ماركسي جديد، إذ من الممكن امتلاك فلسفة تغييرية مبنية على فهم مختلف للتغيير. (.....)

عوامل ظهور الماركسية المحدثه:

-تحديث أفكار الماركسية الكلاسيكية التصويرية التي اتخذت من الصراع مدخلا وظيفيا للعديد من الظواهر الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المتغيرة.

-ظهور من العلماء الشبان الغربيين الذين انهروا بنظرية الصراع لكنهم اعتبروها أداة للتغيير والتحديث لا كما نظر إليها ماركس لكن الصراع في داخله يحمل احترام للنظام والسلطة مثل الانسجام.

-أراد أنصار الماركسية أن يقوم علم الاجتماع ويطور ذاته عن طريق دراسته لعناصر الصراع والتغيير.

-ركزوا على التوفيق بين الماركسية التقليدية التي تركز على الصراع، والوظيفية البنائية التي تركز على التوازن النسقي .

-حرص أنصار الماركسية على تطبيق نظرية الصراع وتصنيفها إلى اتجاهين هما :

-اتجاه ينظر إلى المجتمع على أنه نسق معياري ويركز على العوامل الاجتماعية

-اتجاه طبيعي يسعى لتفسير الصراع بالاهتمام بالأسباب الاجتماعية والثقافية الكامنة التي بسببها يظهر

الصراع. (.....ص 390)

الصراع الاجتماعي عند رالف داهرنردوف:

لقد تأثر "رالف داهرنردوف" كثيرا بالأفكار والمبادئ التي جاء بها كارل ماركس سواء الاجتماعية منها أو الاقتصادية، وبالخصوص تلك التي تتحدث عن الطبقات والصراع الطبقي. ومع ذلك فتأثره لم يكن كلياً وإنما بدرجة نسبية، ويظهر ذلك في عدم اتفاقه معه على أن الصراع ليس محصوراً بين العمال ومالكي وسائل الإنتاج فقط، وإنما هناك أنواع أخرى من الصراع من بينها الذي يحدث بين ذوي البشرة البيضاء والبشرة السوداء وأيضا بين الآباء والأبناء داخل الأسرة، وبين المدرسين والطلاب في المدارس والجامعات ... وغيره.

ينطلق داهرنردوف في نظريته للمجتمع من نقد للبنائية الوظيفية والنظرية الماركسية معاً، ويعتبرها نظريات مجتمع اليوتوبيا، كما يرى أن بعض أفكاره لم تعد تتلاءم مع طبيعة المجتمعات الحديثة التي عرفت تطوراً كبيراً مقارنة بالوقت الذي كتب فيه ماركس أفكاره. فعلى سبيل المثال لم يعد ذلك المفهوم العام عن الطبقة العاملة ذات التوجه الواحد والأهداف الواحدة، بل أصبحت هناك مصالح مختلفة ومكانات متعددة لأفراد الطبقة الواحدة. كما أن نظام الملكية لم يعد كما كان في السابق، بل أصبح هناك انفصال للملكية عن الإدارة، وأخرج الملاك من عملية الإنتاج وبالتالي القضاء على سلطتهم، الاستغالية، وهذا ما سمح بتحسين ظروف الطبقة العاملة الاقتصادية وارتفاع مكانتهم الاجتماعية. إلا أن هذا ليس معناه أن الصراع لم يعد موجود أو ليس له قيمة، بل بالعكس فالواقع يثبت أن الصراع لم يغيب يوماً عن الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية.

هذا ويشير "داهرنردوف" إلى أنه بالرغم من التغيرات والتحديثات التي طرأت على النظام الرأسمالي، والطبقة الرأسمالية، وظهور مجتمع ما بعد الرأسمالي، ونمو الطبقة الوسطى. إلا أنه كنظام بقي محافظ على قوته ومحكما لسيطرته على مصادر الثروة والقوة وأمور الحكم في المجتمع، ويظهر ذلك في وجود حاكم ومحكوم وأمر ومأمور داخل المجتمع، فكما معروف أينما وجدت القوة والسيطرة وجد الخضوع والاستغلال. إن هذه السيطرة والقهر هو ما يجعل من التنظيمات الاجتماعية متسقة، كما أنه هو أيضا الذي يدفع للتمرد والتغيير الاجتماعي لإعادة تقسيم القوة وتمركز السلطة، فالصراع دائما ما ينشأ بين مواقع السيطرة ومواقع الخضوع. وعليه فالصراع في المجتمع الصناعي يتولد من علاقات السلطة، لا من علاقات الإنتاج كما قال ماركس. فإذا كان الصراع عند ماركس اقتصاديا ماديا، فإنه عند داهرنردوف سياسي بدرجة أكثر.

انطلاقاً من مفهوم السلطة الذي يعني "احتمال طاعة أشخاص معينين لقائد جماعة معينة، يبني داهرنردوف نظريته الاجتماعية، فيشير إلى أن المجتمع في الغالب يتألف من جماعتين متضادتين: إحداها

مسيطرة، وأخرى خاضعة. يحدث عادة صراع بينهما نتيجة لوجود حالات من عدم الرضى حول كيفية تقسيم الموارد المادية مثل: السلطة والدخل والملكية. وأيضاً لوجود "ما يسمى بـ"الرموز الثقافية" وهو نوع من الأسباب التي تؤدي إلى انسجام بين البشر أو إلى خصام. والخصام في هذا السياق قد يتجلى في الاختلاف على مفهوم السلطة المادية. فمن له الحق في السلطة وتملكها؟ ولماذا؟ هو سؤال يسمح بنشوب صراع. أما من وجهة نظر ماركسية فإن قضية العدالة الاجتماعية تعد متغيراً بنيوياً في إثارة الصراعات الاجتماعية طالما أن هناك توزيع غير عادل للثروة، تتجلى ملامح نظرية الصراع عند داهرندوف بوضوح أكثر في النقاط التالية:

_ كل مجتمع عرضة لعمليات التغيير.

- كل مجتمع يتضمن الصراع والاتفاق وهي عملية شمولية

_ كل عنصر يسهم في عدم التكامل داخل النسق ويؤدي إلى التغيير.

_ كل مجتمع يركز على قهر بعض أعضائه للبعض الآخر. (زيات فيصل، مخطار ديدوش محمد، ص 390)

الصراع الاجتماعي عند كوزر:

حاول كوزر في دراسته عن الصراع الاجتماعي ان يولي اهتماماً أكثر من غيره من منظري الصراع «كماركس» و"دهرندروف" و"دافيد لوكود" و"جورج سيمل"، وخاصة الدور الذي تلعبه عواطف الناس في تولد الصراع الاجتماعي.

خاصة في العلاقات القوية بين الأفراد. استمد هذه الفكرة من عالم الاجتماع جورج سيمل، الذي رأى أن العواطف مثل الحب والكراهية تظهر بوضوح في العلاقات الاجتماعية الوثيقة. هذه العواطف يمكن أن تعزز الروابط بين الأفراد، ولكنها أيضاً قد تؤدي إلى صراعات عندما تتحول إلى مشاعر سلبية مثل الغيرة أو العداء. ومع ذلك، يرى كوزر أن الصراع الناتج عن العواطف ليس بالضرورة شيئاً سلبياً، بل يمكن أن يكون وسيلة لتقوية العلاقات الاجتماعية أو إعادة تنظيمها.

تعريف الصراع عند كوزر: إنه عملية اجتماعية ضرورية لفهم العلاقات الاجتماعية وهو نضال حول القيم والمكانات ومصادر القوة.

❖ 2. طبيعة الصراع الاجتماعي:

كوزر يرى أن الصراع الاجتماعي ديناميكي ويتغير بسرعة بسبب العواطف والمواقف الاجتماعية المختلفة. وهو لا يقتصر على الصراع المادي أو الاقتصادي، كما رأى كارل ماركس، بل يتعداه إلى صراعات حول القيم والمكانة الاجتماعية والموارد النادرة. هذه الصراعات يمكن أن تحدث بين جماعات أو أفراد، وقد تؤدي إلى

تحييد أو إيداء أو حتى استبعاد الجماعات المتنافسة. ومع ذلك، يمكن أن تنتهي الصراعات بالتوصل إلى اتفاق بين الأطراف دون الحاجة إلى هزيمة أحد الأطراف.

3. الصراع في المجتمعات الحديثة:

وفقًا لكوزر، فإن الصراع في المجتمعات الحديثة لا يدور فقط حول الملكية أو الموارد المادية، بل يتعلق أيضًا بالسلطة والقوة والثروة. وهو يتفق مع عالم الاجتماع رالف دهرندروف في أن الصراع يدور حول السيطرة على الموارد والسلطة، وليس فقط حول الملكية. كوزر يرى أن الصراع يمكن أن يكون "وظيفيًا"، أي أنه يؤدي إلى تغييرات إيجابية في المجتمع، مثل تعزيز التكيف أو إعادة توزيع الموارد

أمثلة على الصراع الاجتماعي:

كوزر قدم أمثلة متنوعة على الصراع الاجتماعي، مثل:

- الصراع السياسي بين الأحزاب.
- الصراع الديني بين الطوائف.
- الصراع الثقافي بين المجتمعات الريفية والحضرية.
- الصراع الطبقي بين الفئات الاجتماعية المختلفة

- خصائص الصراع عند كوزر:

- الصراع ليس دائمًا عنيفًا: يمكن أن يكون الصراع سلميًا ويؤدي إلى اتفاق بين الأطراف.
- الصراع يمكن أن يكون بناءً: قد يؤدي إلى تعزيز التكيف الاجتماعي وإعادة تنظيم المجتمع.
- الصراع يعكس ديناميكية المجتمع: الصراع جزء طبيعي من التفاعلات الاجتماعية ويمكن أن يكون مؤشرًا على حيوية المجتمع.

تحليل آلية الصراع عند لويس كوزر:

الصراع خادم أمين للبناء الاجتماعي يؤدي باستمرار إلى إعادة تكيف المعايير وبناء القوة داخل الجماعات فالصراع نوعان :

صراع داخلي : مرتبط بالأهداف والقيم والمصالح الرئيسية للجماعة فالقيم المتنافرة تهدد البناء الاجتماعي للمجتمع ولذلك فالمجتمع هنا عليه بإعادة النظر في القيم (قيم جديدة) وهذا ما يسمى بـ " درجة الانتظام المعياري" للصراع داخل النسق مما يؤدي إلى قيم متكاملة وبالضرورة يكون هناك تكامل بسبب الصراع .

صراع خارجي : وهو صراع الجماعة مع الجماعات الخارجية فالصراع يؤدي إلى تماسك داخلي مما يعني قلة الصراع الداخلي فالجماعات المترابطة (لها درجة عالية من التفاعل والاندماج الشخصي) يكون فيها كبت الصراع متراكم عندما يظهر يكون عنيفا .

الصراع داخل التنظيمات الاجتماعية:

كوزر ركز أيضًا على الصراع داخل التنظيمات الاجتماعية، مثل المؤسسات والهيئات. ويرى أن الصراع داخل هذه التنظيمات ينشأ بسبب التفاوت في القوة والسيطرة والامتيازات بين الأفراد أو الجماعات. على سبيل المثال، الصراع بين القيادة والمرؤوسين في المؤسسات يمكن أن يكون نتيجة لتفاوت في توزيع السلطة أو الموارد. كوزر يرى أن امتلاك القوة هو العامل الرئيسي في انبثاق الصراع داخل التنظيمات.

وظائف الصراع الاجتماعي:

كوزر يرى أن الصراع الاجتماعي ليس دائمًا شيئًا سلبيًا، بل يمكن أن يكون له وظائف إيجابية، مثل:

- تعزيز التغيير الاجتماعي.
- إعادة توزيع الموارد والسلطة.
- تعزيز التكيف بين الجماعات.
- تقوية الروابط الاجتماعية من خلال حل الخلافات.

مقارنة مع منظري الصراع الآخرين:

- مقارنة مع ماركس: بينما رأى ماركس أن الصراع يدور حول الملكية ووسائل الإنتاج، يرى كوزر أن الصراع أوسع من ذلك، حيث يتضمن القيم والمكانة الاجتماعية والموارد النادرة.
- مقارنة مع دهرندروف: يتفق كوزر مع دهرندروف في أن الصراع يدور حول السلطة، لكنه يضيف أن الصراع يمكن أن يكون وظيفيًا ويؤدي إلى تغييرات إيجابية في المجتمع.

دافيد لوكوود ونقد نظرية النسق

ديفيد لوكوود David Lockwood هو عالم اجتماع حاول تطوير النظرية الماركسية لتتناسب مع تحليلاته للطبقة والصراع الطبقي في المجتمع الحديث. انتقد لوكوود نظرية النسق الاجتماعي (خاصة نظرية بارسونز) لتركزها على التوازن والنظام في المجتمع، معتبراً أنها تتجاهل دور الصراع والمصالح المتعارضة في تشكيل العلاقات الاجتماعية. بدلاً من ذلك، قدم لوكوود مفهوم المستوى التحتي للنسق الاجتماعي، الذي يركز على الصراع والمصالح المتعارضة كأساس لفهم المجتمع.

البناء التحتي والبناء الفوقي: من منظور لوكوود

□ عند ماركس:

البناء التحتي (الأساس الاقتصادي) يشمل علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، وهو الذي يحدد شكل البناء الفوقي (المؤسسات السياسية والثقافية...). الصراع بين الطبقة العاملة (البروليتاريا) وطبقة مالكي وسائل الإنتاج (البورجوازية) يؤدي إلى ثورة وتغيير اجتماعي.

□ عند لوكوود:

ركز لوكوود على أن المصالح المشتركة بين الأفراد تشكل بناءً فوقيًا ينظم البناء التحتي. بمعنى آخر، الصراع ليس فقط بين الطبقات، بل أيضاً داخل الطبقة نفسها بسبب اختلاف المصالح. هذا يخلق علاقة جدلية بين النظام والصراع، حيث يتفاعل الاثنان معاً ليشكلا الواقع الاجتماعي.

الطبقة الاجتماعية: دراسة "العامل المتترف"

بالاشتراك مع زملائه مثل بلات وجولد ثروب، درس لوكوود الطبقة الاجتماعية من خلال تحليل العامل المتترف (ذو السترة السوداء). حاول تفسير العلاقة بين المظاهر الموضوعية (الواقع الاقتصادي) والمظاهر الذاتية (الوعي الطبقي)، مستنداً إلى نظرية ماركس.

النتيجة:

وجد أن الموظفين (ذوي الياقات البيضاء) يعتبرون أنفسهم جزءاً من الطبقة العاملة (البروليتاريا) لأنهم لا يملكون وسائل الإنتاج، لكنهم لا يرون أنفسهم كعمال عادييين بل كفئة أرقى. هذا يشير إلى وجود وعي زائف، حيث لا يدركون انتماءهم الحقيقي للطبقة العاملة.

. موقف السوق وموقف العمل: تحليل وضع الموظفين

لوكوود حلل وضع الموظفين من خلال منظورين:

موقف السوق: الموظفون يبيعون عملهم في السوق مثل العمال، مما يجعلهم جزءاً من الطبقة العاملة.

موقف العمل: يتمتع الموظفون بظروف عمل أفضل، مثل مكاتب مريحة، رواتب أعلى، ومزايا إضافية (معاشات، تأمين صحي). هذا يجعلهم يشعرون بالتميز عن العمال العاديين.

التمايز الطبقي والوعي الزائف

لوكوند لاحظ وجود تمايز كبير داخل الطبقة العاملة نفسها، خاصة بين الموظفين والعمال العاديين. الموظفون: يسعون لتقليد قيم الطبقة الوسطى (مثل المهنيين ذوي الياقات البيضاء) ويشعرون بأنهم مختلفون عن العمال العاديين.

العمال العاديون: يعانون من ظروف عمل أصعب وفرص أقل. هذا التمايز يخلق وعياً زائفاً لدى الموظفين، حيث لا يرون أنفسهم كجزء من الطبقة العاملة، بل كأفراد يسعون للارتقاء اجتماعياً.

تفسير الوعي الزائف: الجوانب الموضوعية والذاتية

لوكوند حرص على تفسير الوعي الزائف من خلال تحليل الجوانب الموضوعية (علاقات العمل) والجوانب الذاتية (تطلعات الموظفين).

الجوانب الموضوعية: الموظفون لا يملكون وسائل الإنتاج ويعملون في ظروف أفضل من العمال العاديين. الجوانب الذاتية: يسعون لتقليد قيم الطبقة الوسطى، مما يمنعهم من إدراك انتمائهم للطبقة العاملة.

❖ الدراسة الثانية العمال الميسورين (الأثرياء): المظاهر الثلاثة للطبقة

في دراسة أخرى مع زملائه، حلل لوكوند وضع العمال الميسورين (الذين يحصلون على أجور عالية ومميزات كبيرة). ركز على ثلاث مظاهر للطبقة:

المظاهر الاقتصادية: ارتفاع الدخل والمكاسب المادية.

المظاهر المعيارية: القيم والاتجاهات الاجتماعية.

المظاهر العقلانية: المشاركة الاجتماعية والثقافية.

وجد أن زيادة الدخل لا تؤدي بالضرورة إلى تغيير في القيم أو الانتماء الطبقي. بمعنى آخر، العمال الميسورون قد يحصلون على رواتب أعلى، لكنهم لا يتبنون قيم الطبقة العاملة ولا يشاركون في الأنشطة الاجتماعية أو الثقافية بشكل كبير.

نقد لوكوند لما ركس:

لوكوند رأى أن ما ركس بالغ في تبسيط مفهوم الوعي الطبقي. وفقاً لما ركس، العمال سيدركون مصالحهم المشتركة ويقومون بثورة ضد النظام الرأسمالي. لكن لوكوند وجد أن الواقع أكثر تعقيداً: الموظفون لا يظهرون وعياً طبقياً واضحاً.

يسعون لتحسين وضعهم الفردي بدلاً من الانخراط في صراع جماعي.
هذا يعني أن الوعي الزائف يمنعهم من رؤية مصالحهم الحقيقية كجزء من الطبقة العاملة.
الخلاصة:

من خلال ما سبق نلاحظ أن لوكود حاول تطوير نظرية ماركس حول الطبقة والصراع الطبقي من خلال التركيز على التمايز داخل الطبقة العاملة، خاصة بين الموظفين والعمال. رأى أن الوعي الزائف لدى الموظفين يعكس تناقضاً بين واقعهم الاقتصادي (كجزء من الطبقة العاملة) وتطلعاتهم الاجتماعية (لتقليد الطبقة الوسطى). تحليلاته تقدم رؤية أكثر تعقيداً للطبقة الاجتماعية، تتجاوز التفسيرات الماركسية التقليدية وتسلط الضوء على دور المصالح الفردية والتفاعلات الاجتماعية في تشكيل الوعي الطبقي.
أهم إسهامات لوكود:

✓ تحديث النظرية الماركسية:

✓ قدم لوكود رؤية أكثر تعقيداً للطبقة والصراع، تتجاوز التفسيرات التقليدية.

✓ فهم الوعي الزائف: ساعدت تحليلاته في فهم سبب عدم إدراك بعض الفئات (مثل الموظفين) لانتمائهم الطبقي.

التمايز داخل الطبقة: أظهر لوكود أن الطبقة العاملة ليست كتلة متجانسة، بل تتكون من فئات مختلفة ذات مصالح متعارضة.

-باركن والقيم والصراع في المجتمعات الحديثة.

تمهيد

في سياق تحليلنا لبنية المجتمعات الصناعية الحديثة، يبرز عالم الاجتماع البريطاني فرانك باركن "Frank Parkin" كأحد أهم رواد الاتجاه الفيبري الجديد. لقد قدم باركن نقداً مزدوجاً لكل من الوظيفية والماركسية التقليدية

إن الإشكالية التي ينطلق منها باركن هي: كيف يستمر النظام الاجتماعي القائم على التفاوت الطبقي دون ثورات مستمرة، وفي الوقت نفسه دون وجود رضا تام من الطبقات الدنيا؟ للإجابة عن ذلك، يرفض باركن فكرة أن المجتمع يمتلك نسقاً قيمياً موحدًا. بدلاً من ذلك، يقترح باركن في كتابه التفاوت الطبقي والنظام السياسي أن المجتمعات الحديثة تتميز بتنافس بين أنظمة معاني مختلفة، وهي التي تشكل إطار الصراع الاجتماعي.

المفاهيم الأساسية:

1- أنظمة المعاني الثلاثة:

يرى باركن أن القيم ليست مجرد انعكاسات ميكانيكية للموقع الاقتصادي، بل هي أطر تفسيرية يتفاعل من خلالها الفاعلون الاجتماعيون مع واقعهم. ويحدد باركن ثلاثة أنظمة رئيسية للمعاني تتصارع داخل المجتمع الغربي الحديث وهي:

- النسق القيمي المهيمن :

يمثل هذا النسق الإطار الأخلاقي والأيدولوجي للمؤسسات الرسمية (الدولة، الكنيسة، المدارس، الإعلام التقليدي). وظيفة هذا النسق هي إضفاء الشرعية على التفاوت القائم وتبرير توزيع المكافآت والثروة. يشير باركن إلى أن هذا النسق لا يتم تبنيه بالضرورة من قبل الجميع، ولكنه يمتلك سلطة معيارية، وبالتالي، فإن الصراع هنا يأخذ طابعاً خفياً، حيث تحاول المؤسسات فرض تعريفاتها للواقع، بينما قد تقاوم الفئات الأخرى هذا الفرض ليس بالرفض الكلي، بل بالتأويل.

- النسق القيمي التابع أو الخاضع:

هذا هو المفهوم الأكثر ابتكاراً لدى باركن. يجادل بأن الطبقة العاملة لا تخضع تماماً للأيدولوجيا السائدة كما يدعي الماركسيون عبر مفهوم الوعي الزائف، ولا تمتلك بالضرورة وعياً ثورياً كاملاً. بدلاً من ذلك، تنتج الطبقة العاملة ثقافة فرعية تكميلية. هذا النسق ينبع من المجتمعات المحلية للطبقة العاملة، وهو ذو طابع دفاعي وعملي. إنه يقبل التفاوت كأمر واقع لا مفر منه، ويركز على تحسين شروط الحياة ضمن النظام القائم بدلاً من الإطاحة به. يصف باركن هذا الموقف بأنه نوع من "الموائمة". هنا يظهر الصراع الاجتماعي ليس كحرب مفتوحة، بل كمفاوضات مستمرة ومحاولات للتكيف مع الضغوط الهيكلية، مما يفسر الاستقرار النسبي للمجتمعات الرأسمالية دون الحاجة لافتراض أن العمال مخدوعون.

النسق القيمي الراديكالي:

يمثل هذا النسق المعارضة السياسية المنظمة مثل الأحزاب الاشتراكية والشيوعية الجماهيرية. وهو النسق الوحيد الذي يطرح بديلاً أخلاقياً وسياسياً للنظام القائم، ويسعى لإعادة تفسير الواقع الاجتماعي من منظور الصراع الطبقي.

يؤكد باركن أن هذا النسق لا ينشأ تلقائياً من تجربة العمال اليومية (التي تميل للنسق التابع)، بل يحتاج إلى تعبئة سياسية وحزب طليعي لبلورته.

2-الإغلاق الاجتماعي:

الإغلاق الاجتماعي يشير إلى العملية التي تسعى من خلالها الجماعات الاجتماعية لتعظيم المكافآت عن طريق تقييد الوصول إلى الموارد والفرص لعدد محدود من المرشحين المؤهلين.

- آليات الإغلاق:

المؤهلات الحصرية: مثل اشتراط شهادات محددة لدخول مهن مثل الطب والمحاماة.
-التعليم النخبوي: المدارس والجامعات المرموقة التي تضمن الوظائف العليا لمن يستطيع تحمل تكاليفها فقط

- الشبكات غير الرسمية: مثل "نوادي القدامى" التي تحصر الفرص داخل الدوائر الضيقة للمتميزين
3. مفهوم "الغصب" أو "الاستيلاء

- على الجانب الآخر، يبرز مفهوم "الغصب"، وهي الاستراتيجيات التي تستخدمها الجماعات المستبعدة لتحدي عدم المساواة.
أمثلة على الغصب:

-النقابات العمالية: للمطالبة بأجور وظروف عمل أفضل.
- الحركات النسوية وحركات الحقوق المدنية: التي تسعى لكسر الحواجز وفتح الفرص أمام الجميع
يشير باركن إلى أن النخب غالباً ما ترد على محاولات الغصب باستراتيجيات إغلاق جديدة

خلاصة

يُظهر تحليل فرانك باركن أن الاستقرار في المجتمعات الحديثة ليس نتاج إجماع قيمي كما افترض تالكوت بارسونز، ولا هو نتاج هيمنة مطلقة تمنع التفكير. بل هو نتاج حالة من التسوية البراغماتية التي تفرضها أنظمة المعاني المتنافسة. الطبقة العاملة قد تقبل بالقيم السائدة على المستوى المجرد مثل احترام الملكية، لكنها ترفضها وتتفاوض حولها في حياتها اليومية الملموسة مثل الإضراب لتحسين الأجور. هذا التناقض القيمي هو ما يحفظ النظام ويجعله في حالة توتر دائم في آن واحد.

راندال كولينز والمدخل التحليلي للصراع.

يمثل راندال كولينز "Randall Collins" نقلة نوعية وجذرية في هذا التيار. إنه لا يرفض التراث الكلاسيكي، بل يعيد بناؤه على أسس ميكرو-سوسيولوجية. في حين ركز رالف دارندورف على "جماعات المصالح" والسلطة داخل التنظيمات الكبرى، وركز لويس كوزور على الوظائف التكاملية للصراع، جاء كولينز لي طرح سؤالاً أكثر دقة: أين يحدث هذا الصراع فعلياً؟

إجابة كولينز هي أن البنى الاجتماعية الكبرى (الدولة، الطبقة، المؤسسة) ليست كيانات صلبة قائمة بذاتها، بل هي مجرد تجريدات نظرية لسلسلة لا تنتهي من التفاعلات المباشرة بين الأفراد. وكما يجادل في عمله التأسيسي، فإن علم الاجتماع يجب أن يكون علماً تفسيرياً يربط الظواهر الكلية بأسسها الجزئية. إن البنية الاجتماعية ليست سوى أنماط متكررة من التفاعل الاجتماعي الميكروي. ولا يمكن فهم الصراع الطبقي أو التدرج الاجتماعي إلا من خلال تحليل ما يحدث بين الناس في مواقف الحياة اليومية".

المفاهيم الأساسية:

ينقل كولينز التحليل من "الصراع حول وسائل الإنتاج" إلى "الصراع حول الموارد العاطفية والرمزية" داخل التفاعل. ولتحقيق ذلك، يدمج كولينز تراث إميل دوركايم (حول الطقوس والتضامن) مع تراث إرفينج جوفمان (حول نظام التفاعل)، ويضعهما في قالب صراعي. أ. سلاسل طقوس التفاعل:

يرى كولينز أن المجتمع يتشكل من سلاسل طويلة من طقوس التفاعل. كل موقف اجتماعي هو "طقس" يتطلب:

1- تواجداً جسدياً مشتركاً / 2. حاجزاً يفصل المشاركين عن الخارج / 3. تركيزاً متبادلاً للاهتمام / 4. مشاركته في حالة شعورية مشتركة.

عندما تنجح هذه الطقوس، يتولد ما يسميه كولينز "الطاقة العاطفية".

ب. الصراع والموارد الرمزية:

الصراع هنا ليس دائماً عنفاً مادياً، بل هو صراع للسيطرة على الموقف التفاعلي. الأفراد يدخلون التفاعل محملين بموارد اكتسبوها من تفاعلات سابقة، وهي:

- رأسمال ثقافي: المعرفة، والرموز، وطرق الحديث التي تسمح للفرد بالهيمنة على المحادثة.

- طاقة عاطفية: الثقة بالنفس والحماس الذي يجعلك قائداً للتفاعل أو تابعاً له.

يوضح كولينز أن الأفراد ينجذبون إلى المواقف التي توفر لهم أعلى عائد من الطاقة العاطفية، وهذا الانجذاب هو ما يشكل بنية السوق الاجتماعية للتفاعلات... حيث يتم تبادل الرموز وتأكيد المكانة.

التدرج الاجتماعي كعملية ميكروية

كيف ينشأ التفاوت الطبقي من وجهة نظر كولينز؟ إنه ينشأ من خلال إعطاء الأوامر وتلقيها.

يقسم كولينز المجتمع بناءً على الخبرات الميكروية للسلطة:

-مانحو الأوامر: يكتسبون طاقة عاطفية عالية، ويشعرون بالسيطرة والتوحد مع أهداف المؤسسة.

-متلقو الأوامر: يعانون من انخفاض الطاقة العاطفية، ويميلون إلى الاغتراب ومقاومة الطقوس الرسمية،

مما يخلق ثقافة فرعية مقاومة أو انسحابية.

هنا نرى تأثيراً واضحاً بفير، ولكن بتفسير سلوكي. فالطبقة ليست مجرد موقع اقتصادي، بل هي "نمط

حياة" ومجموعة من التفاعلات التي تعزز أو تضعف مكانة الفرد. الصراع يحدث عندما تحاول المجموعات

فرض تعريفها للواقع وفرض رموزها الثقافية (رأسمالها الثقافي) كرموز شرعية ومهيمنة.

ويشير كولينز في تحليله لانهيال الدول أو الثورات (كما في تحليله للاتحاد السوفيتي) إلى أن الانهيال يبدأ عندما

تفشل النخبة في توليد طاقة عاطفية كافية للحفاظ على تماسك جهاز الدولة، وعندما يفقد الجيش

والشرطة (كأدوات عنف) التماسك الطقوسي الداخلي.

العنف ليس سهلاً كما نتخيل؛ إنه يتعارض مع البنية الطبيعية للتفاعل الإنساني القائمة على التناغم

الإيقاعي. لكي يحدث العنف، يجب التغلب على حاجز الخوف والتوتر التفاعلي

مثال: صراع الهوية والثقافة في الجزائر..

الاتجاهات النقدية الحديثة في علم الاجتماع

-الإطار الفكري والنقدي للاتجاهات النقدية:

إن الفكر النقدي وُلِدَ عصر التنوير، إلا أن المصطلح قديم قدم الفلسفة، وإن تقييم الفكر أو إتهام له بمثابة نقد له. كما أصبح النقد شرطاً جوهرياً لتقدم المجتمع وازدهاره. أما كلمة النقد فإنها تعني الفحص الدقيق الغير المتحيز لمعنى شيء ما أو لفكرة ما، وهناك تعاريف عديدة قدمت لتعريف النقد تبدأ من سقراط مروراً بكانط وهيغل حتى تصل الى المفكرين المعاصرين. فضلاً عن ذلك هناك أنواع عدة من النقد تتعدد بتعدد مجالات الحياة الإنسانية

والنقد عند هوركهايمر (Horkheimer Max ١٨٩٥ - ١٩٧٣) هو "المجهود الفكري والعلمي المتقدم لعدم تقبل الافكار المهيمنة وصيغ السلوك الجاهزة والعلاقات الإجتماعية بمقتضى العادة ودون تفكير، إذ إن الجهد يجب أن ينصب على ربط مختلف مظاهر الحياة الإجتماعية با لافكار العامة، كذلك أهداف المرحلة وإستنباط تكوينها وتحليل اسس الأشياء، أي بإختصار معرفتها بعمق"⁽¹⁰⁾

تعتبر هذه الفترة تقريبا (1955-1975) في التاريخ السوسيولوجي ولادة الاتجاهات النقدية المعاصرة

-المستوى السياسي والاجتماعي:

شهدت هذه الفترة أزمت بنوية:

- حرب فيتنام: كانت المحرك الأساسي لحركة الشباب؛ حيث كشفت عن "العنف البنيوي" للدولة الرأسمالية خارج حدودها، مما أدى إلى فقدان الثقة في المؤسسات الرسمية.
- حركة الحقوق المدنية (1955-1968): بدأت برفض التمييز في المواصلات (حادثة روزا باركس 1955) وانتهت باغتيال "مارتن لوتر كينغ" (1968). سوسيولوجياً، انتقلت من المطالبة بـ "المساواة القانونية" إلى المطالبة بـ "العدالة الاقتصادية والاجتماعية".
- ظهور الراديكالية السوداء (أواخر الستينيات): برزت حركات مثل "الفهود السود" التي ربطت بين العنصرية والرأسمالية، معتبرة أن تحرر السود لا يتم إلا بتغيير بنية النظام الاقتصادي.

2.المستوى الثقافي والقيمي:

- الاضطرابات المدنية في جميع أنحاء فرنسا ابتداءً من مايو في 1968: مثل ذروة الصدام بين "القيم التقليدية المحافظة" و"القيم التحررية الجديدة"، استمرت نحو سبعة أسابيع وتخللتها المظاهرات والإضرابات العامة واعتصامات الجامعات والمصانع. توقفت حركة الاقتصاد الفرنسي .
- بروز "الثقافة المضادة: ظهرت أنماط حياة جديدة ترفض العمل المأجور التقليدي، وتدعو إلى التحرر الجنسي، ونقد العائلة الأبوية، والاهتمام بالبيئة.

3. المستوى المعرفي

- فخلال هذه الفترة (1955-1975) حدث ما يلي:
- سقوط الهيمنة البارسونزية: حتى منتصف الخمسينيات، كان "تالكوت بارسونز" ونظريته الوظيفية يسيطران على العلم. لكن مع انفجار الشوارع بالاحتجاجات، ظهر أن هذه النظرية "عمياء" عن الصراع والتغيير.
- صدور كتاب "الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي" للألفين غولدر، الذي أعلن فيه أن السوسيولوجيا التقليدية أصبحت أداة في يد السلطة، ودعا إلى سوسيولوجيا "انعكاسية"
- ولادة السوسيولوجيا النقدية: بدأت ترجمة أعمال مدرسة فرانكفورت إلى الإنجليزية (مثل كتابات ماركوز)، وظهرت اتجاهات نقدية جديدة تحاول فهم المجتمع من منظور "الهيمنة" وليس "الاستقرار".

تشارلز رايت ميلز C.Wright Mills (1916-1962)

- يصنف عالم الاجتماع الأمريكي تشارلز رايت ميلز كأحد أبرز أعمدة الاتجاه الراديكالي في الفكر السوسيولوجي المعاصر. وينظر إليه الكثير من الباحثين باعتباره "المؤسس الحقيقي للاتجاه النقدي" في علم الاجتماع الأمريكي؛ حيث لم يكتفِ بالتحليل السكوني للمجتمع، بل وجه نقداً لاذعاً ومنهجياً للمنظومات الفكرية التي هيمنت على الساحة الأكاديمية في زمنه.
- لم يكتفِ سي رايت ميلز بنقد التيارات النظرية الكبرى فحسب، بل خاض معارك منهجية مباشرة مع أقطاب عصره؛ حيث تحدى علانية عالم المناهج البارز "بول لازارسفيلد"، الذي كان زميلاً له في جامعة كولومبيا، منتقداً انحيازه للزعة التجريبية الكمية التي تحول علم الاجتماع إلى مجرد أداة إحصائية جافة. ولم يتوقف طموحه النقدي عند الزملاء، بل امتد ليشمل أساتذته القدامى والمنظرين التقليديين، الذين لم يسلموا من مراجعاته الجذرية وتشكيكه في قدرة أطروحاتهم على مواكبة تحولات العصر
- مفهوم الخيال السوسيولوجي والفهم التكاملي للواقع الاجتماعي
- رأى ميلز أن هناك مشكلة في علم الاجتماع في عصره (القرن العشرين، خاصة الخمسينيات)، وهي أن هذا العلم وقع في فخين:

- الإمبريقية التجزئية: أي التركيز المفرط على جمع البيانات والإحصاءات دون ربطها بسياق أوسع أو نظرية شاملة. هذا يجعل الدراسات سطحية وغير قادرة على فهم المجتمع بعمق.
- النظريات الكبرى المجردة: مثل نظرية تالكوت بارسونز التي تعتمد على أفكار معقدة وبعيدة عن الواقع العملي، مما يجعلها غير مفيدة لفهم التغيرات الحقيقية.

ميلز يقول إن المفهوم السوسيولوجي الجيد يجب أن يوازن بين الفكرة (النظرية) والمضمون الإمبريقي (الأدلة الواقعية). إذا كان المضمون أكبر من الفكرة، تصبح الدراسة مجرد إحصاءات فارغة، وإذا كانت الفكرة أوسع من المضمون، تصبح النظرية مجرد كلام نظري لا يلامس الواقع. الحل: يكمن في الخيال السوسيولوجي

اقترح "الخيال السوسيولوجي" كأداة لإصلاح هذه الأزمة. هذا المفهوم هو:

قدرة عقلية: تمكن الباحث من ربط حياة الفرد بالمجتمع، والمشكلات الشخصية بالقضايا العامة.
أداة نقدية: تساعد على تحليل أساليب السيطرة والتحكم في المجتمع (مثل تأثير النخب السياسية أو العسكرية).

ليس فقط لعلماء الاجتماع، بل للجميع (صحفيين، فنانين، مواطنين عاديين) لأنه يساعد على فهم العالم من حولهم.⁽¹¹⁾

التمايز بين الاضطرابات الشخصية والقضايا العامة

قدم ميلز أداة تحليلية بارزة تتمثل في التمييز بين "الاضطرابات الخاصة التي تقع ضمن نطاق علاقات الفرد المباشرة، و"القضايا الهيكلية العامة التي ترتبط بتنظيم مؤسسات المجتمع ككل. ويضرب ميلز أمثلة تطبيقية توضح عمق هذا التمييز:

-البطالة: إذا عجز فرد واحد عن العمل في مدينة كبرى، فإننا نبحث عن الأسباب في مهاراته أو شخصيته (اضطراب خاص). أما إذا كان هناك الملايين من العاطلين، فإننا نكون بصدد "قضية" هيكلية تتطلب فحص المؤسسات الاقتصادية والسياسية.

-الزواج والطلاق: الخلافات الزوجية الفردية هي اضطرابات خاصة، لكن عندما يصل معدل الطلاق إلى أرقام ضخمة (مثل 250 من كل 1000 حالة)، فإن ذلك يشير إلى أزمة في مؤسسة العائلة نفسها.
- الحرب: قد يسعى الفرد للنجاة أو الموت بشرف (اضطراب)، لكن مسببات الحرب وآثارها على البناء الاجتماعي والسياسي تمثل قضايا هيكلية كبرى.

يرى ميلز أن "الخيال السوسيولوجي" هو سمة عقلية تمكن صاحبها من استخدام المعلومات وتنمية الإدراك لإحراز إحاطة واضحة بما يجري في العالم وما قد يطرأ على النفس. إن الشعور بالحصار الذي يواجهه الناس العاديون في حياتهم اليومية نابع من عجزهم عن إدراك الصلة بين أنماط حياتهم والمسار التاريخي للعالم.

- كيفية دراسة المجتمع من خلال الخيال السوسيولوجي:

تتميز دراسة المجتمع من خلال الخيال السوسيولوجي بأنها تدور حول ثلاث موضوعات:

- طبيعة البناء الاجتماعي ككل، ما هي مكوناته الأساسية؟ كيف ترتبط ببعضها؟ وكيف تختلف عن غيرها من النظم الاجتماعية؟

- مكان المجتمع -محل الدراسة- أين يقف هذا المجتمع في التاريخ البشري؟ ما هي الآليات التي يتغير بها؟ وما هو دور الفترة الزمنية التي نعيشها في تشكيل هذا التغيير؟

- طبيعة نماذج الرجال والنساء التي تسود في هذا المجتمع؟ من هم الأفراد الذين ينجحون؟ ومن الذين يهملون؟ وكيف يتم تشكيل الطبيعة البشرية في هذا السياق؟⁽¹²⁾
يمكن تحليل ما سبق وشرحه في النقاط التالية:

1- تحليل البناء الاجتماعي

ميلز يدعونا هنا إلى عدم النظر للظواهر كحالات فردية، بل كجزء من نظام أكبر:

- المكونات الأساسية: هي المؤسسات التي تشكل المجتمع (الأسرة، الدين، النظام الاقتصادي، النظام السياسي.....)

- الخيال السوسيولوجي يجعلنا نفهم كيف يؤثر الاقتصاد (مثل ارتفاع الأسعار) على شكل الأسرة (تأخر سن الزواج)، وكيف تؤثر السياسة على التعليم.

- سؤال الاختلاف: يهدف هذا التساؤل إلى مقارنة هذا البناء بغيره؛ فالبناء الاجتماعي في مجتمع رأسمالي يختلف جذرياً عن مجتمع قبلي أو اشتراكي من حيث توزيع القوة والموارد.

2- البعد التاريخي

ميلز يرفض دراسة المجتمع كـ "صورة ثابتة"، بل يجب دراسته في حالة تغير وليس سكون.

- الموقع التاريخي: أين نحن الآن؟ هل نعيش في عصر "ما بعد الحداثة"؟ "عصر المعلومات"؟ فهم المرحلة التاريخية يفسر لماذا تظهر ظواهر معينة الآن ولم تكن موجودة سابقاً.

- آليات التغيير: كيف يتطور هذا المجتمع؟ هل يتغير عن طريق الثورات، أم التكنولوجيا، أم ببطء عبر التقاليد؟

- تأثير الفترة الزمنية: لكل حقبة تاريخية دور في صياغة الأنماط السلوكية للأفراد؛ حيث تفرض سياقات الأزمان كالحروب منظومة قيمية تختلف في جوهرها عن تلك التي تتبلور في فترات الرخاء والاستقرار.

3- التنوع البشري

هنا نصل إلى النتيجة النهائية: كيف يشكل المجتمع أفرادَه؟

- النماذج السائدة: في كل مجتمع، هناك "نماذج مثالية" يروج لها النظام. (مثلاً: "رجل الأعمال الناجح" في المجتمع المعاصر مقابل "المحارب الشجاع" في العصور الوسطى).

- النجاح والتهميش: المجتمع هو الذي يضع قواعد اللعبة؛ فهو الذي يحدد من هم "الناجحون" (الملتزمون بقيم البناء الاجتماعي) ومن هم "المهمشون" (الذين لا تتناسب مهاراتهم أو طبقتهم مع متطلبات النظام)

- تشكيل الطبيعة البشرية: ميلز يجادل بأن "الروح الإنسانية" ليست ثابتة، بل يتم إنتاجها وتعديلها بواسطة المجتمع. فالطريقة التي يحب بها الناس، ويغضبون، ويتنافسون، هي انعكاس للبيئة الاجتماعية التي نشأوا فيها.

آلفن غولدنر (Alvin Gouldner) (1920-1980)

يعتبر ألفن جولدنر رائداً من رواد الاتجاه النقدي السوسيولوجي المعاصر في الولايات المتحدة الأمريكية، خاصةً في بداية العقد السابع من القرن العشرين المنصرم. فقد أبدى وعياً راديكالياً بدوره الأكاديمي والسياسي والثقافي في المجتمع. من خلال سعيه المتواصل للكشف عن النقائص والثغرات السائدة في علم الاجتماع المعاصر، لذا نجد أن معظم كتاباته قد وقعت على الحد الفاصل بين علم الاجتماع المعرفة والنظرية الاجتماعية.

السوسيولوجيا الانعكاسية / علم الاجتماع الانعكاسي (Reflexive Sociology)

يرى غولدنر في كتابه "الأزمة القادمة للسوسيولوجيا الغربية" (1970) يمثل مفهوم "السوسيولوجيا الانعكاسية" الحل الذي اقترحه غولدنر لتجاوز أزمة العلم. وتعتمد هذه الرؤية على المبادئ التالية:

- نقد الذات السوسيولوجية: لا ينبغي لعالم الاجتماع أن يكتفي بدراسة الآخرين، بل يجب أن يدرس نفسه وعلاقاته وتصورات القبلية التي تؤثر على بحثه العلمي.
- كشف افتراضات النطاق: يرى غولدنر أن النظريات السوسيولوجية ليست محايدة، بل هي محملة بـ افتراضات قبلية تعكس انحيازات الباحثين وطبقاتهم الاجتماعية.
- دمج الحياة والعمل: يسعى غولدنر لإنهاء الانفصال بين الحياة الشخصية لعالم الاجتماع وممارسته المهنية، بحيث يصبح البحث الاجتماعي وسيلة للتحرر الشخصي والاجتماعي معاً.

انتقد غولدنر بشدة ادعاءات الموضوعية الزائفة، مؤكداً أن الوعي بالانحيازات السياسية والاجتماعية هو الخطوة الأولى نحو علم اجتماع أكثر صدقاً وقدرة على التغيير. لقد كان غولدنر يرى أن الأزمة القادمة هي أزمة معرفية ناتجة عن عجز العلم عن نقد ذاته وعن فهم الحركات الاحتجاجية التي هزت المجتمعات الغربية في الستينيات.⁽¹³⁾

النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت

أولاً: تعريف مدرسة فرانكفورت وتأسيسها:

في صيف سنة 1922 وبمبادرة من شخصية فكرية تدعى فليكس ج. وايل (F.J. Weil)، ووالده الذي كان ثريا، اجتمع في مدينة فرانكفورت عدد من المفكرين الماركسيين أمثال: جورج لوكاتش (J. Luckacs)، كارل كورش (K. Korsch)، كارل فيتفوجل (K. Wittfogel) ومفكرين آخرين في ملتقى فكري لدراسة وضعية التفكير الماركسي، الذي كان يشهد آنذاك عدة محاولات للتطوير والتعديل. نتج عن هذا الملتقى مشروع إنشاء معهد للدراسات الماركسية، الذي تم تأسيسه بالفعل سنة 1923 تحت اسم آخر وهو "معهد الأبحاث الاجتماعية بالتعاون مع مدرسة فرانكفورت".

أما تسمية مدرسة فرانكفورت فتشير إلى التقاليد الفكرية النقدية التي نشأت في إطار هذا المعهد بمساهمة عدد معتبر من المفكرين الألمان من مختلف التخصصات والاتجاهات الفكرية، من أهمهم: ماكس هوركهايمر (M. Horkheimer)، تيودور أدورنو (T. Adorno)، والتر بنيامين (W. Benjamin)، هيربرت ماركوز (H. Marcuse). الطابع النقدي الذي تميزت به جل أعمال هذا المعهد برز خاصة بعد تولي هوركهايمر إدارة المعهد.

أخذت المدرسة طابعاً فكرياً مغايراً بمرور الزمن. يصف المؤرخ مارتن جاي (Martin Jay) هذا التحول العميق قائلاً إن المدرسة انتقلت: "من (نادي ماركس) قبل هجرتها من فرانكفورت، إلى (نادي ماكس - نسبة لماكس هوركهايمر) بعد عودتها، ويعني هذا انتقال المدرسة من أفكار ثورية ماركسية كلاسيكية إلى التركيز على الفلسفة ونقد الثقافة البرجوازية الرأسمالية الاستهلاكية أكثر من التركيز على التاريخ والاقتصاد. لم يسمح للمعهد بمواصلة نشاطه بعد قيام النازية، حيث مع استيلاء هتلر على الحكم في ألمانيا عام 1933، أغلق المعهد وصودرت مكتبته وغادر أعضاؤه (وهم يهود في غالبيتهم) إلى العواصم الأوروبية. قاموا بفتح ملحقات له في مدينة جنيف (سويسرا) أطلقوا عليه اسم "المؤسسة العالمية للبحث الاجتماعي"، وكذلك الأمر في كل من لندن وباريس. لكن مع التوسع الذي عرفته النازية، اضطر هؤلاء المفكرين ثانية إلى مغادرة أوروبا عام 1934 نحو الولايات المتحدة الأمريكية، حيث انتقل المعهد معهم إلى مدينة نيويورك باسم "المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي" واستقر بعد ذلك في جامعة كولومبيا، لينتقل مرة أخرى عام 1941 إلى مدينة لوس أنجلوس إلى غاية نهاية الأربعينيات، قبل أن يستقر المعهد بفرانكفورت مرة أخرى عام 1950.

ثانياً: الرواد والمؤسسون وبعض إسهاماتهم السوسيولوجية:

تميزت المدرسة بطابعها متعدد التخصصات، حيث ضمت علماء اجتماع، فلاسفة، محللين نفسيين، وعلماء اقتصاد. من أبرزهم:

1-2 تيودور أدورنو (1903-1969) و ماكس هوركهايمر (1895-1973)

في علم اجتماع الثقافة والإعلام، يُعد مفهوم "صناعة الثقافة" الذي صاغه أدورنو وهوركهايمر ثورة حقيقية. لقد رفضا استخدام مصطلح "الثقافة الجماهيرية" لأنه يوحي بأنها ثقافة نابذة من الجماهير

وعفوية. بدلاً من ذلك، استخدمنا "صناعة الثقافة" للتأكيد على أنها تُنتج من أعلى (من قبل الشركات الاحتكارية) وتُفرض على الجماهير.

الآليات السوسيولوجية لصناعة الثقافة:

- الترميز (Standardization): المنتجات الثقافية (أفلام هوليوود، الأغاني الشعبية، البرامج التلفزيونية) تُصنع كسلع نمطية تشبه خطوط التجميع في المصانع. الحركات مكررة، والنهايات متوقعة. هذا الترميز يقتل الخيال ويبرمج عقل المتلقي على الاستهلاك السلبي.

- التفرد الزائف (Pseudo-individuation): لكي تستمر الصناعة في بيع نفس المنتج النمطي، تقوم بإضافة اختلافات سطحية وهامشية (مثل تغيير لون غلاف الألبوم، أو إضافة مؤثرات بصرية جديدة لفيلم مكرر) لتوهم المستهلك بأنه يختار منتجاً فريداً يعبر عن شخصيته، بينما هو في الحقيقة يستهلك نفس السلعة.

- خلق الحاجات الزائفة: تقوم الإعلانات وصناعة الثقافة بخلق رغبات وهمية لدى الأفراد، وتربط سعادتهم باستهلاك سلع لا يحتاجونها فعلياً، مما ييقظهم في عجلة العمل الشاق والاستهلاك المستمر.

- الضبط الاجتماعي: الوظيفة الأخطر لصناعة الثقافة هي التخدير. إنها تقدم "متعة" سطحية وهروباً مؤقتاً من شقاء العمل الرأسمالي، وبذلك تمتص غضب الجماهير وتمنعهم من التفكير النقدي في واقعهم الاستغلالي. إنها أداة للهيمنة الأيديولوجية الناعمة.

كتاب "جدل التنوير" لهوركهايمر وأدورنو هو النص الأكثر تعبيراً عن التشاؤم السوسيولوجي للمدرسة. كتب هذا العمل في ظل صدمة المحرقة (الهولوكوست) والدمار الشامل للحرب العالمية الثانية.

كان مشروع التنوير الأوروبي (في القرن 18) يهدف إلى تحرير الإنسان من الخرافة والأسطورة وسيطرة الطبيعة، وذلك باستخدام "العقل" والعلم. لكن هوركهايمر وأدورنو يجادلان بأن هذا العقل التنويري تحول هو نفسه إلى أسطورة جديدة وإلى أداة للقمع.

مفهوم العقل الأداتي:

في المجتمع الرأسمالي الحديث، تقلص العقل ليفقد بعده النقدي والأخلاقي (العقل الموضوعي الذي يتساءل عن الغايات: ما هو العدل؟ ما هي الحرية؟)، وتحول إلى عقل أداتي/ذاتي. هذا العقل يهتم فقط بـ "الكفاءة"، "حساب التكلفة والعائد"، و"أفضل الوسائل لتحقيق غاية معينة"، بغض النظر عن مدى عقلانية أو أخلاقية هذه الغاية.

"إن السيطرة على الطبيعة (عبر التكنولوجيا والعلم) أدت حتماً إلى السيطرة على الإنسان. لقد تم تشييء الإنسان (تحويله إلى شيء قابل للحساب والاستغلال). المحارق النازية لم تكن خروجاً عن العقلانية الحديثة، بل كانت التطبيق الأقصى للعقل الأداتي: إدارة بيروقراطية وتقنية عالية الكفاءة لعملية إبادة جماعية".

2-2 هربرت ماركوز (1898-1979): عالم اجتماع وفيلسوف، ركز على نقد المجتمع الصناعي المتقدم والتكنولوجيا كأداة للسيطرة.

في كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" (1964)، يقدم ماركوز تشريحاً سوسيولوجياً للمجتمعات الصناعية المتقدمة سواء الرأسمالية في الغرب أو الشيوعية البيروقراطية في الشرق آنذاك. يرى ماركوز أن التكنولوجيا لم تعد مجرد أداة محايدة، بل أصبحت هي نفسها "أيدولوجيا" للسيطرة. لقد نجح النظام التكنولوجي في دمج الأفراد في آليته لدرجة أنهم أصبحوا يدافعون عن النظام الذي يستغلهم. التكنولوجيا وفرت مستوى معيشياً مريحاً (سلع، رفاهية، ترفيه)، وهذا "الرخاء" هو بالضبط ما استخدمه النظام لاحتواء الطبقة العاملة وشراء صمتها.

فقدان البعد النقدي (البعد الواحد)

الإنسان ذو البعدين هو الإنسان القادر على رؤية "الواقع كما هو" وتخيل "الواقع كما يجب أن يكون" (البعد النقدي/الخيالي). أما الإنسان ذو البعد الواحد، فهو إنسان تم تدجينه بالكامل؛ لقد فقد القدرة على النقد، وتماهى تماماً مع النظام القائم ومع السلع التي يستهلكها. يقول ماركوز: "إن الناس يتعرفون على أنفسهم في سلعهم؛ يجدون أرواحهم في سياراتهم، وأجهزة التلفزيون، ومنازلهم."

التسامح القمعي :

يشير ماركوز إلى مفهوم عبقرى وهو أن الديمقراطيات الغربية تسمح بحرية التعبير والمعارضة، ولكن هذا التسامح هو في الحقيقة "تسامح قمعي". النظام يسمح لك بالصراخ والاحتجاج لأنه يعلم أن صوتك سيضيع في ضجيج وسائل الإعلام وصناعة الترفيه، ولن يؤدي إلى أي تغيير هيكلي حقيقي. المعارضة أصبحت جزءاً من الديكور الديمقراطي الذي يشرعن النظام.

2-3 يورغن هابرماس :

يمثل يورغن هابرماس 1929-2026 نقطة تحول كبرى في مسار المدرسة. لقد أدرك أن تشاؤم الجيل الأول (هوركهايمر وأدورنو) قاد النظرية النقدية إلى طريق مسدود إذا كان العقل كله أدواتاً ومدمراً، فكيف يمكننا نقد المجتمع أو تغييره؟

الفعل التواصلي: (Communicative Action)

لحل هذه المعضلة، ميز هابرماس بين نوعين من العقلانية والأفعال:

العقلانية الأدواتية (الفعل الغائي)

هذا النوع من العقلانية يرتبط بالبحث عن أكثر الوسائل كفاءة لتحقيق هدف محدد مسبقاً. هنا، يُنظر إلى الآخرين أو إلى الطبيعة بوصفهم "أدوات" أو "وسائل" للوصول إلى غاية معينة.

العقلانية التواصلية (الفعل التواصلي)

هذه العقلانية لا تهدف إلى السيطرة، بل إلى التفاهم والوصول إلى إجماع بين الذات. هي عقلانية تقوم على استخدام اللغة والحوار للوصول إلى نقطة التقاء مشتركة حول الحقيقة أو المعايير الأخلاقية.

المعرفة والمصالح البشرية وأزمات الرأسمالية:

في كتابه "المعرفة والمصالح البشرية" 1974، يكسر يورغن هابرماس الفكرة التقليدية التي ترى المعرفة مجرد مرآة محايدة للواقع، ليؤكد بدلاً من ذلك أنها محكومة بمصالح حيوية توجه عقولنا.

النوع الأول هو المصلحة التقنية، وهي التي تحرك العلوم الطبيعية بهدف السيطرة على البيئة المادية والتنبؤ بظواهرها لتسهيل حياة الإنسان المادية.

أما النوع الثاني فهو المصلحة العملية التي نجدها في العلوم الإنسانية والتاريخية؛ فهدفها ليس السيطرة، بل الفهم المتبادل وتفسير المعاني لضمان استمرارية التواصل البشري والتعايش داخل المجتمع. وأخيراً، تأتي المصلحة التحررية التي تميز العلوم النقدية، وهي مصلحة تسعى لتفكيك علاقات القوة والسيطرة، وكشف الأوهام الأيديولوجية التي تقيد وعي الإنسان، بهدف الوصول إلى حالة من الاستقلال والحرية الواعية. هكذا، يربط هابرماس بين ما نعرفه وبين الطريقة التي نعيش بها، معتبراً أن المعرفة الحقيقية هي تلك التي لا تكتفي بالفهم أو السيطرة، بل تسعى لتحرير الإنسان.

استعمار عالم الحياة:

هذا هو الإسهام السوسيولوجي الأبرز لهابرماس. يقسم المجتمع إلى شقين: عالم الحياة: فضاء العلاقات الاجتماعية اليومية، الأسرة، الثقافة، والنقاش العام. وهو محكوم بـ "العقلانية التواصلية" والتفاهم.

النظام: يتمثل في الاقتصاد والدولة. وهو محكوم بـ "العقلانية الأدائية" وآليات المال والسلطة. الأزمة في المجتمعات الحديثة، حسب هابرماس، تكمن في أن النظام "يتغول ويستعمر عالم الحياة. آليات المال والسلطة تقتحم مجالات الأسرة والتعليم والثقافة، وتحول العلاقات الإنسانية إلى علاقات تجارية وبيروقراطية. الحل يكمن في الدفاع عن عالم الحياة وتوسيع "المجال العام" الديمقراطي. أهم الإيجابيات والإسهامات:

- تأسيس سوسيولوجيا نقدية ترفض تبرير الواقع وتطمح لتحرير الإنسان.
- تقديم أدوات تحليلية جبارة لفهم دور وسائل الإعلام الجماهيرية في تشكيل الوعي-صناعة الثقافة-.
- التحذير المبكر من مخاطر التكنولوجيا عندما تتحول إلى غاية في حد ذاتها وتنفصل عن القيم الإنسانية.
الانتقادات الموجهة للمدرسة:

- اتهم الجيل الأول (خاصة أدورنو) بالتعالي على الثقافة الشعبية واعتبار الجماهير مجرد "قطيع" سلبي يتم التلاعب به بسهولة، متجاهلين قدرة الأفراد على المقاومة وإعادة تأويل الرسائل الإعلامية.
- غياب أي بديل عملي أو قوى اجتماعية قادرة على التغيير-خاصة عند الجيل الأول-، مما جعل نظريتهم تبدو كنظرية يأس مغلقة.

- انحرفت المدرسة كثيراً عن الماركسية الكلاسيكية بتمهيشها للطبقة العاملة كقوة ثورية فاعلة. وقد بُني هذا التهميش على انعكاس الخبرة الاستثنائية الأمريكية (غياب طبقة عاملة منظمة سياسياً) على فكرهم في المهجر.

- يشير توم بوتومور، أخفقت المدرسة في الالتزام بالطريقة القاطعة التي اقترحها هوركهايمر، حيث «لا تمتلك المفاهيم والأدوات التصورية القدرة على سد الفجوة بين الحاضر والمستقبل».

- استبعدت المدرسة اهتمامها بالتاريخ والاقتصاد إلى حد كبير لصالح الفلسفة ونقد الثقافة، وغلبت النزعة الفلسفية والتنظير المجرد على أعمالها.